

سَيِّطَانُ بَنْتَوُورَ

المحادثة السابعة

قال الهدهد فلما كان أصيل الغد خرجت الى الموعد كالعادة وقد عيل صبرى لبخل النسر على بالكلام وخبطه في ضرب المواعيد فدخلت منفيس ضالا حيران لا أهدى السيل ولا أجد من دليل فجعلت أمر بالدور العالية وأطيف بالقصور الشاهقة لعل أجد ربح النسر على ذلك القصر حتى أتعبني طلابه وأغضبني احتجابه وتمض الى اصطحابه فعمدت اشباك مفتوح في طبقة من دار فدخلتها منه وقررت في رف هناك ثم نظرت تحتي فرأيت غلاما بضعة منتثرين في المكان متقابلين على الارض فيه وقد جلسوا أرضا واقبلوا برؤوسهم على ركبهم وبين أيديهم شيء كثير من ورق البردى وسائر ادوات الكتابة وهم في العمل، وكان الصدر لرجل يؤخذ من سنه وهيئته واتخاذ منصة للجلوس واخرى للاوراق، انه رئيس هذه العصبة والمسيطر على هؤلاء الكتبة فخيل لي عند ما رأيتهم على هذا الحال انني في بعض الدوائر المصرية القديمة حيث الباشكاتب يتصدر والعمال بجانبه يعرضون عليه الحرف والسطر والصحيفة

(قال) وكان دوني غلامان متدانيان في الجلوس و كانا يتحادثان همسا فاسترقت السمع فسمعت احدهما يقول للآخر نحن نكتب غير مأجورين وتعب وهذا الرئيس ياخذ المرتب فاجابه الثاني وليته يتركنا وشأننا وما نحن فيه من حال تحنى الظهور وتدمى الركب وتقرح الجفون فقد شكاني من أيام الى والدى وزعم انى بطىء الفهم ثقيل الحركة قال وهل صدقه أبوك قال تردد ثم نقل الحديث الى أمى فلم تصدقه وحلفت بنعمة الآلهة اننى أحضر ذهنا وأصح فهما منه ومن أولاده الثلاثة

قال انه صديق لايك ولوالدى ولولا هذه الصداقة لما اتخذنا تلميذين له فليته لم تكن ولم تدخل هذا القبر على قيد الحياة قال لكن الناس اجماع على أن هذه الصناعة التى نمارسها هى سلم الارتقاء فى خدمة الامراء والاغنياء وان كثيرا من الكتبة وصلوا فيها الى الجاه العظيم وحصلوا معها على المال الجسيم

وقد حدثني أبي وأنت تعرف مكانته في العلم والفضل انه رغب في الاتصال بالامير (أوني) أحد أنجال الملك وكان في ديوان حجابيه عمل يحتاج الى عامل فطلبه أبي بسفارة صديقه هذا الذي سئمتنا من رؤيته وهو كما تعلم المأمور المتصرف في ديوان أمواله فعرض اسمه على الأمير في جملة ما عرض من الاسماء فلم يقع اختياره الا على واحد من الكتبة لكن أبي لا يرى هذا الشيطان ويتمه بكونه يظهر مالا يبطن كدأب جماعة الكتبة المتعفين على أن يأخذ بعضهم بيد بعض في الأمر كله وهذا هو سبب قوتهم وسر نجاحهم .

قال المدهد فنجبت لمصرام العجائب كيف صبرت آلافا من السنين على حال واحد مع هؤلاء الكتبة فكانوا على عهد الفراعنة هم أنفسهم وقت دخول العرب الى زمن المماليك الى أيام محمد على الى حكم اسماعيل الى عصر الاحتلال وفيه ظهرت الشهادة لابتدائية وأختها الثانوية فمات بها الجهل وماتت الكتابة القديمة لكن ذلك كثير من طلبة الرزق في الحكومة بين طلبة العلم عن غير شهادة وحررت في نسي فلم أدر أبكي ذلك اليسر مع الجهل أم أبكي من هذا العسر مع العقل ؟

وكننت قد استبشرت عندما سمعت اسم الامير أوني وعرفت من حديث الفلاحين أن الديوان له وهؤلاء الكتبة أتباع له وأملت أني أستدل على القصر بأحدهم فتحقق أملي على الفور اذ لم يلبث الرئيس ان نهض فالتفت الى من يليه من الغلمان وأخبره أنه ذاهب الى القصر لمقابلة الامير في بعض الشؤون ثم خرج من الباب فسبقته من النافذة وأنا أستغرب هذا الاتفاق وأعجب من المصادفات كيف تنساق فما زال في سيره وأنا في اثره حتى احتوانا طريق ضيق جمعتني العناية فيه بالنسر وكان يمشي متمهلا كثير التلفت فلم أتمالك عن الوقوع على كتفه فلما صرت في عشي المألوف منه التفت متبسما مسرورا وقال لقد خفنا على الهدهد الضلال .

قلت ما زلت يامولاي تفضله وما برحت العناية تدله ثم حدثته حديثي وما وعيت من محاوره الغلامين فاستضحك ثم قال انظر كيف يستفيد الغريب من الضلال أضفاف الفائدة من الاستدلال، قلت لقد أوشكت يامولاي أن أضل حلما فيكم وفي شؤونكم الغريبة وأحوالكم العجيبة لانكم تهزلون وتجدون وتصغرون وتعظمون

وتجهلون وتعقلون كيف يكون مثل ذلك الكاتب على ديوان أموال الأمير وفي المملكة من يصلح لهذا العمل وأمثاله من طلبة العلم بين شبان البلاد والاكفاء قال وأي كبير لا يصغر أحيانا يابني أن للآلهة الكبيرة كما للفرد الكبير زلات وجهالات تدل على أن الكمال الكامل للآلهة وحدهم فاذا دخلت على قوم ديارهم فلا تحكم على أشياءهم متفرقة واحكم عليها مجتمعة ثم أفضى بنا المسير إلى ميدان واسع فيه قصر رفيع فشى النسر نحوه فسأله لعلها دار الأمير يامولاي قال نعم وليست ما ترى الا قصرا من نحو مائة قصر يحيط بها سور واحد ويأوى إليها الملك ونسائه وأولاده وأرباب خدمته كل بقدر درجته في القرابة وحسب منزلته في الصحبة وموقفه في الخدمة

قال الهدهد فاستغربت الامر وقلت للنسر ما ترك الاول للآخر يامولاي فليست يلدز بالشئ الذي يذكر في جنب هذه الابنية الفرعونية والمساكن الرميسية قال ألم أحرمك أن تقيس وأن تذكر أحد الملوك برئيس

قلت لا أعود لها يامولاي ثم دخلنا القصر فجعلنا نلج بابا ونستقبل آخرو ونخرج من ساحة وندخل في ساحة ونطوى دهليزا إلى دهليز بين حراس جملة وجند عدة وخدام لا تنقضي لهم جيئة ولا ذهاب حتى ضمتنا حديقة من أبدع ما غرست الراحة وأكرم ما أخرجت الارض من النبات فاجتزناها إلى قصر له بهو يتمشى فيه الأمير الشاب بين اثنين من الاصحاب فحين وقع نظره على الاستاذ تهلل واهتز واتشى إلى ما وراء البهو ليستقبلنا وسار الغلمان بين يدي النسر حتى أدخلوه على الأمير فالتقاء أحسن التقاء وأعلى محلة وأجلسه بجانبه وأومأ إلى صاحبيه فجلسا دونه في الحضرة ثم خاطبه والابتسام ملء فنه فقال لعل هذا هو الهدهد السحري الذي لا يفارق الاستاذ في هذه الايام قال هو بعينه فمن حدثك حديثه يامولاي

قال قداسة هوروس (من ألقاب الفراعنة) أوبلغ حديث الهدهد إلى الباب العالي (من ألقاب الفراعنة) قال وهل يخفى على جلالة خافية في الارض أوفى السماء وهو المضطلع وحده بالملك في الاولى وشريك الآلهة في ملك الثانية قال كذاك هو يامولاي لكنه لم يسألني عن أمر هذا الصاحب الجديد قال لعل شاغلا شغله قال هذا الهدهد يامولاي خلق لمجالس الملوك والامراء لانه أصم لا يملك السمع أخرس لا يملك الخطاب اللهم الا أن يتنزل فيه من روح الملك يوم يعرض عليه

فينطق بما يدعش ذا القصرين (من ألقاب الفراغة) لان سره اذا حل في نبات مشى
أوفى طير نطق فلا يجدن مولاي من بأس في تشرفه الآن بالحضرة لانه يكتبكم الاخبار
ولا يذيع الاسرار .

قال الكريم يصحب الكريم أيها الاستاذ ولو حملت معك البيغاء وهي الغافلة
الواشية من بين الطير لا تمنها كما نأتمنك والآن لعلك تدعوني الى الدرس قال ان
أذنت يا مولاي فتبسم الامير ثم قال الا تراني كبرت عن الدرس أيها الاستاذ قال
ما علم عن بشر انه ير عن التعلم يا مولاي ولو سألت جلالة الملك وهو الموحى الى
من في الارض الموحى اليه من السماء لاجاب ان الكمال ميسور بلوغه الا في العلم
قال فما باله غفى كثيراً من اخوتي الاصغر سنا من الدرس قال وما يدريك أن
يستجيبك ويرجو ان يستثمر غرس عنايته بك فقد سمعته في بعض الايام يقول لمن
حوله إن (أوني) لعل يان و ان البيان لخير مظاهر الملوك والامراء يسترق لهم
الخواطر ويسعى لهم بالقلوب قال لو أنهم يختصرون معي من الدرس فلا يكلفوني
منها ما يمجّه ذوقي وتأباه طباعي مثل الرماية وركوب الخيل ومطاردة السباع في
الصحارى والقفار لا قبلت على سائر ما اقبال الخياري المستفهمين على الهياكل ينتظرون
جواب الآلهة في معضلات المسائل قال إن من الناس يا مولاي من تلجئة منزله في هذا
العالم الى ممارسة ما يكره وركوب ما لا يود وأنت ابن الملك وناهيك بها من نسبة
يتلاقى فيها أبوك والشمس وأنها لتجعلك حيث لا يكون سائر الناس فانت بمن معك
بين أصحاب موالي لا تأمنهم أن ينقلبوا أعداء مقاتلين بل أنت من قصرك هذا في
شبه حصن تحرسه الآن مهابتك ولا يحمينه عند الكريهة الا ثباتك وشجاعتك واذا
خرج فتیان المملكة الى قتال المتوحشة بني الخراب (كنية الامم الخارجين من
حكم الفراغة) ومنعهم من الغارة على البلاد نصرة للآلهة ومواطنهم المقدسة
خرجت أنت ناصراً للآلهة زائداً عن ملك أليك المؤيد بالشمس فانت اذا من جنود
الصف الاول الذين لا غنى لهم عن قلوب تقسيها ملاقات الاسود وجسوم ينشطها
ركوب الخيل وأحداق يحددها مزاولة الرماية وسواعد يقويها الضراب بالسيف
واعلم يا مولاي ان هذه الدنيا لمن غلب وان الغلبة فيها للقوة وأن الامم لا تحفظ
الاستقلال موجودا ولا تسترده مفقودا الا بالقوة فيتعين اذا على كل انسان يحب بلاده

حجة حقيقية ويريد بقاءها ممتعة الجوانب عزيزة المنال على الاجانب أن يثبت نفسه بالفضيلة ويقوى بدنه بقدر الامكان ويتعلم فنون الحرب في السلم وأن يشب على ذلك ويسوم أولاده أن يشبوا على مثله حتى اذا دهم البلاد يوم عصيب استدفعتهم بشبان من ابنائها وشيب

ان الأسد اذا أقعده الهرم ناشته الذئاب كاحدى الرمم ، وان الباز اذا خففت رأسه الدهور توثب على منسره العصفور ، وهكذا الامة لا تغنى عنها الفضائل جمه إذا هي لم تجعل الشجاعة رأسها ولم تستحضر في الحرب والسلم قوتها وبأسها نشأ أبوك الملك يا مولاي ونشأنا معه نحن رفاق صباه في التخشن والتكشف وأنواع الرياضة البدنية من صيد ومطاردة وقاتل صوري ولم يكن جدك الملك سبتي يقدمه على أحدنا في المعاملة أو يفرق بين أحد منا في المجاملة بالرغم من مختلف الانساب ومتفاوت الاحساب فلم يبلغ الواحد منا الخامسة عشرة من عمره الا وهو كالشبل النوبي لا يقر له قرار في الفياث والقفار وقد أوتى والدك الملك وهو يحبو الى العشرين فاحتكم بكف كمخلب الأسد وقلب كقلبه أو أشد وكنا نحن المرشحين لمشاركته في سياسة الأمور وأعوانه الطبيعيين على مداورة الشؤون فوجد عندنا سواعد قوية البأس وعزائم شديدة المراس وعقولاً صحيحة سليمة في جسوم قوية قويمة ولا أكتمك يا مولاي اني كنت كثير الشكوى مثلك أضيق ذرعا بتلك النقل وأتعب بتلك المشاق واشتهى جلسة على شاطئ النيل في ساعة الغروب لكي آخذ من محاسن الأكوان وأسرارها وأشهد معترك ظلماتها وأنوارها وانظر الى الماء اذا قعد وإلى النبات اذا سجد وإلى الطير اذا هجد واسمع ذلك الخرير تتاليه باصواتها النواعير وقد انفتح للسكانت هيكل من خاطري فجمعها فهي تمجد الالهة فيه وأنا أجدهم معها الا أن والدتي كانت تقص على قصص الوحوش من الشعوب الذين أغاروا على مصر في الزمن الأول وتمثلهم لي في أفظع الصور وتصفهم باقبح الاوصاف فبينما هم الذئاب العادية اذا هم الأسود الضارية اذا هم الشياطين العاصية فروا من الحامية وردوا الى الدنيا ثانية .

وكانت تقول إنهم لا يفرون الا من السلاح ولا يعصم منهم الا السواعد العيلة الصالح فكنت اذا سمعت ذلك منها قصرت الشكوى وصبرت على البلوى حتى تمت

لجسمى الترية فانقطعت لتهدب نفسى قال الأمير ومن لى أيها الأستاذ بام كالتى ذكرت إن والدتى أول العاذلات لى على ما أنا فيه من اجهاد نفسى وأتعاب جسمى وهى تزعم انه ما دام الملك من بعد أبى سيصير لأخى الأكبر فلا حاجة بى الى مثل هذا الكد والكدر قال وبيع الأمهات طالما جنين فهدت الرحمة عذرهن

انت يامولاي ان لم تكن وارث الملك فانك وارث الملك وهو على فضائل لا بذلك أن تكون عليها لأن المسؤولية فى هذا العالم بقدر منزلة الانسان فيه ومن أرفع منزلة من ابن رمسيس على أن محبة أخيك لك وثقتك فيك يوم ينتقل اليه الملك تكونان بقدر قسطك من المزايا ونصيبك من الفضائل فان كانا موفورين وكان أخوك برباك مقبلا عليك كنت ساعده فى الملك ومساعدته فى الحكم فان فاتك من هذا لم يفك اجماع الناس على تعظيم نسبك وتكريم حسبك قال أنتظن أيها الأستاذ أن يخرج منا معشر أبناء رمسيس ونحن خمسون أو تزيد من يشبه آياه أو يخطو فى سبل الفخار خطاه قال مثل هذا السؤال يامولاي يلقيه أبناء الملوك ولا يبالون لكن الحرج كل الحرج على من يسألون قال نحن الآن صديقان تتحدث ولا تختلف على أتى أرجو أن تكونوا من بعده كما الورد بعد الورد يحفظ منه شيئا ومعذور أن تفوته أشياء

ان السعادة يامولاي لم تكمل لملك كما كملت لأبيك فى حياته فهل نكلفها أن تبقى عليه بعد مماته ولئن صح ما أعتقد من أن الانسان قد يحيى فى نسله وينبعث فى فرعه كما يبعث من أصله فربما حي لدى أحدكم ما يموت من فضله لكن من لكم يومئذ بالملك الجسم يظهر ذلك الفضل للعباد وبالحظ العظيم يبشره فى البلاد

قال صدقت أيها الأستاذ فهل تدلنى على ركن من السعادة الود اليه فاسلو ما لا يدرك من محاكاة أبى فى بلوغ السعادة الكاملة. قال عليك بالشهرة يابنى فانها محسودة الملوك والامراء وأفضل ما تنال بالعلم وأثبت ما تكون به فاطلبه وجالس أصحابه وأجهد وسعك أن يقال عنك ابن نفسه ثم ابن رمسيس فهذه هى اللذة الحقيقية والسعادة التى لا يعدلها فى هذا العالم الا الصحة أبقتها الآلهة عليك

قال الهدهد وبينما أنا أنتظر أن يدعو الأمير الى الدرس ويأخذ فى القائه عليه إذا هو قد تتأهب كعادته ثم التفت الى مملوء الجفنين من النعاس

فقال اذا جاء الليل ذهب الشياطين فألقى أصيل الغد على باب القصر فانتبهت من حلمي فاذا أنا فى عشى بحلوان.